الهوية اللغوية بين ساطع الحصري ومولود قاسم نايت بلقاسم
– مقاربة في عصر العولمة–

د/ الزهراء عاشور
جامعة العربي بن مهيدي– أم البواقي.

مقدمة:

إذا كانت الهوية آلية دفاعية متينة تحمي أصحابها من غزو العولمة المتوحشة، ومن هيمنة الثقافة الواحدة.فإن الباحثين في الدائرة العربية والإسلامية، حديثا وراهنا، قد اختلفوا في مفهومها وفي تحديد سماتها.

يعتبر ساطع الحصري أحد المفكرين القوميّين العرب الذين كانوا سبّاقين في البحث في مسألة الهوية مركزا على القومية العربية، حيث استطاع من خلال نشاطه السياسي والفكري والتربوي طوال أكثر من نصف قرن أن يقيم منظومة فكرية للحركة القومية العربية.متأثرا في ذلك بالثقافات الغربية، لاسيما الألمانية والفرنسية منها.

لقد كان الحصري واسع الثقافة ملمّا بالكثير من العلوم، مجيدا لبعض اللغات.حيث مكّنته معرفته باللغة الألمانية من الاطلاع على الفلسفة المثالية عند هيغل ومقومات الفكر القومي الألماني الذي يركز على اللغة في تحديد الهوية، وبوصفها العامل الأساسي في تكوين واستمرار الجماعة القومية.ومكّنته معرفته باللغة الفرنسية من الاطلاع على الفكر الغربي، وتاريخ القوميات في أوروبا.

لقد ركز الحصري في بحثه في مسألة الهوية على رابطتي اللغة والتاريخ مفضلا الأولى على الثانية، معتبرا اللغة من أهم مقومات الأمة ومشخصاتها، بل هي روح الأمة وحياتها و بها تتشكل هويتها.

كما يعتبر مولود قاسم نايت بلقاسم أحد المفكرين الجزائريين البارزين من أنصار الفصحى الذين كرّسوا جهودهم لخدمة اللغة العربية، ولاسترجاع مكانتها اللائقة بها في الدوائر الحكومية والمؤسسات التعليمية بالجزائر من خلال نشاطه السياسي والفكري والثقافي.

لقد كان مولود قاسم واسع الثقافة، مجيدا للكثير من اللغات.فإضافة إلى اللغة العربية، كان يجيد الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والسويدية.وكان يتحدث اليونانية واللاتينية والجرمانية والسلافية والرومانية.حيث مكّنته معرفته باللغة الألمانية من الاطلاع أيضا على مقومات الفكر القومي الألماني الذي يركز على اللغة في تحديد الهوية، شأنه شأن ساطع الحصري.

وفي ظل العولمة التي تسعى إلى صياغة الهويات المتعددة في بوتقة ثقافية أحادية النمط تخضع في ظلها الثقافات لقانون الثقافة الأسمى، وإلى محاصرة اللغات وإلغاء الحواجز اللغوية في سبيل إحلال ثقافة عالمية ولغة عالمية.أصبحت الهوية اللغوية من الإشكاليات المطروحة التي تثير الكثير من التساؤلات، لاسيما في الوسط الفكري العربي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهل العروبة –كما يرى المفكران، حصن متين لمواجهة العولمة؟
وهل مفهوم العروبة انتماء عرقي، أم انتماء ثقافي حضاري؟

تمهيد:

لقد عرف القوميون العرب الأسس التي ترتكز عليها قوميات الشعوب، فأخذوا يتلمسون أهم الموضوعات التي تثبت دعائم قوميتهم وترسخها في النفوس في ضوء الأحداث المتفاعلة في مجتمعاتهم وبالتالي نحت هوية مميزة لهم.حيث كانت اللغة العربية والتاريخ بما فيه من تراث ثقافي عربي، أهم الموضوعات القومية التي ركز عليها القوميون العرب من مفكرين وكتّاب وأدباء وشعراء، هذا ما نقف عليه عند دراسة أدبيات الفكر القومي التقليدي لاسيما المسيحي منه.

لقد انطلقت الدعوة القومية من بلاد الشام حيث أسهم المسيحيون العرب فيها بقسط وافر معتبرين اللغة العربية هي الأساس الحقيقي للوعي القومي العربي، مركزين على العروبة تركيزا كبيرا.ونظرا لارتباط القومية باللغة، فإن اللغة العربية هي التي حفظت القومية العربية من التشتت والزوال–كما يشير إلى ذلك ساطع الحصري، فاللغة العربية أصبحت لغة الدين والصلاة عند المسلمين والنصارى على حد سواء[1].

ولقد "أحيت دراسة اللغة والآداب العربية في تلك الحقبة التاريخية الشعور بالأمجاد الغابرة حتى أصبحت هذه الذكريات التاريخية مقوما أساسيا من مقومات القومية العربية، وهكذا أصبحت اللغة العربية والأدب والتاريخ جوهر التراث الثقافي العربي وهذا ما حدد للقومية العربية طريقها وأعطاها زخما قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها"[2].

لقد ركز القوميون العرب على اللغة العربية باعتبارها عنصرا فعالا في بناء الإحساس القومي العربي وتنميته، وكوحدة جامعة بين العرب.حيث كادوا يرفعونها إلى مقام الوطن باعتبارها رمزا للهوية في الماضي والحاضر، ولذلك انبرى الأدباء والشعراء العرب –من مسلمين ومسيحيين– في تلك الحقبة في الدفاع عنها أمام محاولات الاتحاديين الأتراك الذين حاولوا تهميشها وإقصاءها ونشر التركية على حسابها.

كما ركز القوميون العرب على التاريخ، حيث دعوا إلى إحياء التراث العربي الثقافي وضرورة بعث الإحساس بالماضي الزاهر والوقوف على أمجاد العرب.فالعودة إلى التراث عندهم، تثير الشعور بعمق الجذور التي تجمع الشعب وتوحد كلمته.فلقد "التفت العرب في نهضتهم الأدبية والفكرية الحديثة إلى الماضي البعيد يستلهمون منه القيم والمعاني وطرق التعبير، وزاد بريق التراث العربي في نفوس العرب واشتد دأبهم وحرصهم على بعثه بعد أن طالت هجعتهم في ظل الحكم العثماني الخانق فقويت ردة فعلهم في هذا المجال وتوسعت الآفاق التي ضربوا فيها"[3].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يستخدم القوميون العرب الأوائل مصطلح "**الهوية**" الأيديولوجي الرائج حاليا، لكنهم أسهموا في صناعة هوية قومية عربية.وذلك بتأكيدهم على عناصرها الأولى، وهي: اللغة العربية والثقافة والتراث العربي.والعروبة إذا كانت قائمة على شكل لغة وثقافة وعصبية قبل المرحلة القومية في الدول الإسلامية بما فيها الدولة العثمانية، فإن العروبة كقومية ظهرت كنزعة عند مسلمي ومسيحيي بلاد الشام ضد التواجد التركي.حيث ظهرت بداية ثقافية تطالب بالمساواة للعرب مع الترك أو الحكم الذاتي في إطار الدولة العثمانية ضد التتريك، ثم كانت انفصالية تسعى إلى خلافة عربية في الثورة العربية سنة **1916م**.

أما في مصر، فقد كانت نتيجة مشاعر الضباط العرب الذين أحسوا بهويتهم العربية في مقابل الضباط غير العرب من مماليك وغيرهم في الجيش المصري الذي طوره وحدّثه محمد علي باشا، ثم بعدها عن نشوء الوطنية المصرية ضد الإنجليز وتفاعلها مع ثقافة بلاد الشام.ويضيف طارق البشري القضية الفلسطينية التي يعتبرها عنصرا محوريا في تحول الوطنية المصرية إلى قومية عربية سياسية، حيث يقول:"لقد بدأت الجامعة المصرية وطنية عام **1919م**، وآلت إلى أن تصبح قومية في منتصف القرن الحالي.وطريق الوطنية المصرية إلى القومية العربية السياسية، لم يكن عبر تبني الأقليات لها في صراع مع الهوية الإسلامية ولا عبر صراع مع الدولة العثمانية، بل عبر قضية فلسطين.تلتقي النزعات (القومية والإسلامية) على أرض فلسطين مثلا وكذلك على أرض الوحدة العربية، وعلى رغم مجافاة التيار الإسلامي للقومية إلا أن جل سهامه وُجهت إلى النزعات الفينيقية والفرعونية والبابلية ولم يشتبك الفكر الإسلامي السياسي الحركي منذ حسن البنّا بشكل فعلي مع دعوة الوحدة العربية"[4]– بل اشتبك مع القومية العربية المناهضة للدين الإسلامي، والقومية كأيديولوجية وانتماء سياسي.

وقد تأثر القوميّون العرب بالتيارات الفكرية الغربية، حيث اصطبغت القومية العربية بالعلمانية الليبرالية وبالاشتراكية.فتباينت طروحات التيار العروبي الليبرالي وطروحات التيار العروبي الاشتراكي، وابتعد كل منهما عن المد العروبي الإسلامي.ومنه، أخذت الهوية في ظل القومية العربية أبعادا أخرى أهمها: دعوة فصل الدين عن الدولة.

أولا: الهوية اللغوية عند ساطع الحصري[5].

لقد كان للفكر الغربي أثر في بلورة الفكر القومي عند ساطع الحصري، لاسيما الفكر الألماني والفكر الفرنسي.يبدو ذلك من خلال مؤلفاته التي يشير فيها إلى المرجعية الألمانية والفرنسية، كما يتجلى ذلك من خلال تحليله لنظريات المدرستين ونقدها.وإنْ كان تأثره بالفكر الألماني أكثر، لاسيما "بأستاذيه–الفيلسوفان اليهوديان ماكس مولو وماكس نوردو اللذان وضعا نظريتهما في إحياء الفكر القومي، إحياءً للقومية اليهودية"[6].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحتل اللغة مكانة هامة في أبحاث الفلاسفة والمفكرين الألمان مثل: هاردر الذي يؤكد أن الطبيعة هي التي أقرت التمايز اللغوي بين الشعوب، وأن اللغة بمنزلة الوعاء الذي تتشكل وتحفظ فيه وتتنقل بواسطته أفكار الشعب وهي أيضا قلب الشعب وروحه[7].

كما أصبحت قصائد الشاعر الألماني موريس آرنت الوطنية، تتغنى بالوطن الألماني على أساس وحدة اللغة.وأما الفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فيخته (**fichte**) فقد صرّح في خطبه، أن اللغة والأمة أمران متلازمان ومتعادلان وأن الذين يتكلمون اللغة الألمانية يكوّنون أمة واحدة ذات هوية واحدة[8].وقد ظلت هذه الخطب بمثابة أناجيل القومية.

ومنه، فالوحدة الألمانية كانت تطبيقا لتلك الآراء حول اللغة.ويقرر ساطع الحصري بموجبها أن تاريخ القوميات يرتبط من حيث الأساس بتاريخ اللغات، وأن أي شعب من الشعوب لا يفقد حياته وكيانه إلا عندما يفقد لغته[9].

وتأثُّر ساطع الحصري بفكرة القومية عند الألمان، راجع كما يرى بعض الباحثين إلى التشابه على صعيد المبادرة التاريخية.فالوحدة القومية كانت المشكلة الأساسية المطروحة أمام ألمان القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر الميلادي)، وهي المشكلة الأساسية المطروحة أمام عرب القرن الحاضر (أي القرن العشرين الميلادي)[10].

كما أن المدخل الألماني في تكوين ساطع الحصري يعود إلى ترابط الدولة العثمانية والدولة الألمانية وتحالفهما في مجالات عدة مثل: الاقتصاد والاتصال والنواحي العسكرية."وفي ظل هذا المناخ كان طبيعيا أن يتأثر الشباب العثماني سواء بالعسكرية الألمانية أو بالأفكار والفلسفات الألمانية، ومن ثمّ جمعت أفكارهم بين عناصر شتى كان في مقدمتها الفلسفة المثالية المأخوذة عن هيغل وكان منها أيضا تأكيد الفكر القومي الألماني على تكريس اللغة بوصفها العامل الأساسي في تكوين واستمرار الجماعة القومية"[11].

لقد حاول ساطع الحصري أن يضع نظرية عامة في القومية مستفيدا من مختلف النظريات الغربية الألمانية والفرنسية والإنجليزية والروسية والسويسرية، وذلك في فترة تعتبر فترة بلورة الفكر القومي العربي بظهور أعلام لم يدخروا جهدا في هذا المجال مثل: قسطنطين زريق ومحمد عزة دروزه وغيرهما.وهي الفترة التي جاءت بعد فترة تحسس الهوية العربية التي كان من أبرز أعلامها: نجيب عازوري وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهما.

لقد قام ساطع الحصري بقراءة التاريخ السياسي الأوروبي، وبتحليل النظريات القومية الأوروبية ومناقشتها ونقدها ولاسيما بالتركيز على مصطلحات لها علاقة بالقومية، مثل: الوطنية والأمة والدولة.وعلى روابط القومية، مثل: اللغة والتاريخ والدين فجاءت تحليلاته مزيجا غربيا حصريا.

لقد اعتبر الحصري أن مبدأ القوميات يعتبر من أهم العوامل التي أدت إلى الانقلابات السياسية التي حدثت منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا وغيرها، "فالنزاعات القومية التي كانت ضئيلة الأثر وقليلة الظهور حتى ذلك التاريخ، أخذت تتقوى بعد ذلك بسرعة هائلة، وأصبحت تفرض نفسها على اتجاهات السياسة، وتسيطر على سير التاريخ.فكثير من الأمم المغلوبة على أمرها أفاقت من سباتها، وأخذت تشعر بكيانها الخاص، وصارت تسعى إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تدعيم هذا الكيان بالحكم الذاتي أولا، وبالاستقلال التام ثانيا.على حين أن السلطنات التي كانت قائمة قبلا، أخذت تتقلص شيئا فشيئا، إلى أن أندرس معظمها، تاركا محله لدول قومية عديدة.وبدأت هذه القوميات تختلف وتتنازع، وظهرت من جراء ذلك مسائل الأقليات وما يتبعها من المشاكل والاختلافات.وإذا استعرضنا سير هذه الانقلابات، وجدنا أن جماعات من الناس اعتبرت نفسها من قومية واحدة، وأخذ أفرادها يشعرون أنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى، وصاروا ينزعون إلى الاستقلال عنها"[12].

تعتبر الوطنية والقومية عند ساطع الحصري علاقات فردية قائمة على روابط نفسية وعاطفية بحتة، وعلى الرغم من أن الوطنية هي حب الفرد للوطن، والقومية هي حبه للأمة.فإن الحصري يربط بين مفهوم الوطنية ومفهوم القومية، لأن حب الوطن يتضمن بطبيعته حب الناس الذين ينتمون إليه[13].

كما ركز ساطع الحصري على الروابط المعنوية الجامعة لأفراد الأمة، كالاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ والاشتراك في اللغة والتاريخ والتشابه في العواطف والعوائد والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولّد التقارب والتعاطف وتكوّن الأمم والأوطان[14] .وإن كان تركيزه على رابطتي اللغة والتاريخ كان أكثر.

لقد ناقش ساطع الحصري عوامل تكوين القومية [15]، فرأى أن:

1) وحدة الأصل والدم ليست العناصر المكونة للقومية، ولا تؤلف بين الأمم.ومن يعتقد ذلك فهي أوهام استولت على العقول والأذهان."يظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تتحدر من أصل واحدٍ، ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون بمثابة الأشقاء المتحدرين من صلب أبٍ واحد.ولذلك نجدهم يكررون في كل مناسبة كثيراً من التعبيرات الدالة على هذا الزعم، كقولهم: "أجدادنا، آباؤنا، إخواننا..."غير أن هذا الظن لا يستند إلى أساسٍ صحيح،... فإن جميع الأمم التي نعرفها الآن قد تكونت من تداخل عشرات الأعراق والأجناس، في مختلف أطوار التاريخ، حتى إن الأجناس التي عاشت في القرون المتقدمة على أدوار التاريخ، كانت أيضا متخالطة ومتداخلة جدا.ونستطيع أن نقول بكل جزم وتأكيد: إن وحدة الأصل والدم في الأمم إنما هي من الأوهام التي استولت على العقول والأذهان، من غير أن تستند إلى دليل أو برهان".
2) العاملين الأساسيين في تكوين القوميات هما **اللغة والتاريخ المشترك**، ومن خلال هذين العاملين يجب أن تقيم كل العوامل الأخرى المؤثرة بالقومية.فأما "**اللغة**: هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس، لأنها أولا، واسطة التفاهم بين الأفراد، ثم هي فضلا عن ذلك، هي آلة التفكير.لأن التفكير- حسب تعبير أحد الحكماء- ما هو إلا تكلم باطني، والتكلم إنما هو نوع من التفكير الجهري.وأخيرا، إن اللغة هي واسطة لنقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد إلى الأحفاد، ومن الأسلاف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى الأخلاف.هذا، و**اللغة** التي ينشأ عليها الإنسان، تكيف تفكيره بكيفيات خاصة، كما أنها تؤثر في عواطفه أيضا تأثيرا عميقا.فإن اللغة التي يسمعها المرء منذ صغره، اللغة التي تخاطبه بها أمه منذ أوائل حياته الواعية، لغة التنويمات والأغاني التي تهز مشاعره منذ طفولته، تؤثر بطبيعة الحال تأثيرا عميقا في تكوينه العاطفي. ولذلك تجد أن وحدة اللغة توجد نوعا من الوحدة في التفكير وفي الشعور، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية.ونستطيع أن نقول لذلك: إنها تكوّن أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعات.وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم، فمن الطبيعي أن نجد مجموع الأفراد الذين يشتركون في **اللغة**، يتقاربون أكثر من غيرهم، ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من سواهم، ويتميزون عمَّن عداهم، فيؤلفون بذلك أمة متميزة من الأمم الأخرى.لذلك نستطيع أن نقول: إن الأمم يتميز بعضها من بعض –في الدرجة الأولى– بلغتها، وإن حياة الأمم تقوم، قبل كل شئ على لغاتها.وإذا أضاعت أمة من الأمم لغتها، وصارت تتكلم بلغة أخرى، تكون قد فقدت الحياة واندمجت في الأمة التي اقتبست عنها لغتها الجديدة.كثيرا ما يرينا التاريخ، أن بعض الأمم تستولي على أمة أخرى، وتخضعها لإرادتها، وتسير شؤونها كما تشاء.إن هذا الاستيلاء يفقد الأمة المغلوبة استقلالها، ولكنه لا يمس كيانها، ما دامت الأمة المذكورة محافظة على لغتها الخاصة بها، وما دامت متميزة من الأمة المستولية عليها بهذه اللغة الخاصة.يتبين من ذلك كله: أن اللغة هي روح الأمة وحياتها، إنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري، وهي من أهم مقوماتها ومشخصاتها".وأما "**التاريخ** فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها.فإن كل أمة من الأمم، إنما تشعر بذاتها وتكوّن شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص.عندما أقول التاريخ، لا أقصد بذلك التاريخ المدون في الكتب –التاريخ المدون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات– بل أقصد بذلك التاريخ الحي في النفوس، الشائع في الأذهان، المستولي على التقاليد.إن وحدة هذا التاريخ تولد تقاربا في العواطف والنزعات، إنها تؤدي إلى تماثل في ذكريات المفاخر السالفة وفي ذكريات المصائب الماضية، وإلى تشابه أماني النهوض وآمال المستقبل.ولذلك نستطيع أن نقول: إن الذكريات التاريخية تقرب النفوس، وتكوّن بينها نوعا من القرابة المعنوية.وتكون هذه القرابة المعنوية أشد تأثيرا من القرابة المادية بدرجات.والأمة المحكومة التي تنسى تاريخها، تكون قد فقدت شعورها ووعيها.وهذا الشعور والوعي، لا يعودان إليها إلا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه...وأما اليقظات القومية، بعد عهود الحكم الأجنبي، فتبدأ عادة –بعكس ذلك– بتذكر التاريخ القومي وبالاهتمام به اهتماما خاصا.يتبين من كل ما تقدم، **أن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات**.والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها، وأصبحت في حالة من السبات، وإن لم تفقد الحياة.وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي والاهتمام به اهتماما فعليا، ولكنها إذا ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقدت لغتها، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات، فلا يبقى سبيل إلى عودتها إلى الحياة، فضلاً عن استعادتها الوعي والشعور".

أما "وحدة التاريخ" فيشرحها الحصري، بأنها ليست الوحدة التامة في جميع أدوار التاريخ.بل يجب أن تُفهم من ذلك الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ: أهم صفحات التاريخ التي أوجدت ثقافة الأمة الأساسية، وأعطتها لغتها الحالية، وطبعتها بطابعها الخاص.و إلا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة، كانت موحدة على طول تاريخها توحيدا تاما.ويجب أن نعلم العلم اليقين، أن التاريخ يعمل عمله الفعّال في تكوين الأمم، على الرغم من أمثال هذه الاختلافات العارضة الطفيفة.

ويعطي الحصري للعامل الجغرافي دورا مهما، حيث يرى أنه العامل الوحيد الذي يؤثر في اللغة والتاريخ."لأن فقدان الاتصال الجغرافي قد يؤدي إلى بقاء أجزاء الأمة الواحدة منفصلا بعضها عن بعض، رغم اتحادها في اللغة والتاريخ.زد على ذلك، أنه قد يؤدي –بمرور الزمن– إلى تباعد وتباين في اللغة والتاريخ أيضا".

3) علاقة الدين بالقومية علاقة غير خطية، لا تخضع للتعميمات التبسيطية، سواء كانت تلك التعميمات سلبية أو إيجابية."إن الدين يولّد نوعا من "الوحدة" في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه، ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيرا شديدا.فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ.غير أن تأثير الدين في تسيير السياسة والتاريخ وتكوين القومية والوطنية–على هذا المنوال– لا يجري على وتيرة واحدة في كل الأحيان.بل إن هذا التأثير يختلف باختلاف الأديان من جهة، وباختلاف العصور والأدوار من جهة أخرى.و لذلك نستطيع أن نقول إن علاقة الأديان بالقوميات من المسائل المعضلة التي تحتاج إلى بحث عميق وتحليل دقيق".

أي أن الحصري رفض طرح الدين عاملا في التقارب القومي، حيث أحل اللغة محل الدين وراح يبشر بدين جديد هو دين العروبة[16] .وعلى الرغم من اعترافه بأن الإسلام ساهم في تكوين الأمة العربية وتوسيع نطاق العروبة والمحافظة على اللغة العربية، فإنه لم ير لزوما اعتبار الدين من المقومات الأساسية للقومية العربية[17] .يقول الحصري:"وما كان يصلح للناس في القرن الأول، لا يصلح لغيرهم في القرن الرابع عشر.وما يناسبنا اليوم، نحن معشر العرب، هو أن نغلق هذه النصوص وغيرها"[18].يقصد النصوص الشرعية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصنف ساطع الحصري الأديان من الوجهة الاجتماعية إلى صنفين أساسيين: الأديان القومية، والأديان العالمية.أما الأولى فيرى "أنه من الطبيعي أن الرابطة التي تتولد عنها تنضم إلى تأثير اللغة والتاريخ، وتقوي الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض.ولذلك كله نجد أن الحياة الدينية لدى تلك الأقوام، لا تنفصم عن الحياة السياسية أبدا، فتزيد أفراد القوم ترابطا على ترابطهم وتماسكا على تماسكهم.فنستطيع أن نقول إن الروابط الدينية تكون في هؤلاء الأقوام من عناصر القومية الأساسية".وأما الثانية فيرى "أن أصحابها يميلون إلى إيجاد رابطة أعم من روابط اللغة والتاريخ، ومن البديهي عند الحصري أن أصحاب هذا الصنف من الديانات كثيرا ما يميلون إلى معارضة القوميات.ثم يقرر أن التاريخ يشهد على أن هذه الأديان العالمية لم تنجح في إيجاد رابطة أقوى من رابطة القومية، إلا داخل نطاق محدود، لمدة قصيرة جدا".إنها لم تستطع أن تمزج الأقوام مزجا حقيقيا، وأن تزيل الفوارق التي تميز بعض أولئك الأقوام من بعض تماما، إلا بقدر ما نجحت في نشر لغة من اللغات، وبقدر ما أوجدت من التبدل في حدود القوميات."فالأديان العالمية لم تستطع أن توحد القوميات، حتى في الأدوار التي وصلت سلطتها خلالها إلى أقصى الدرجات".ويعطي مثالا على ذلك الدين الإسلامي الذي لم يستطع في نظره أن يوحّد المسلمين، ولم يحل دون تفرق المسلمين إلى أمم ودول، ودون حدوث منازعات ومخاصمات بين الدول الإسلامية نفسها.

أما علاقة الدين باللغة، فيرى الحصري أنها علاقة قوية.فإن كل دين من الأديان يقوم على لغة، ويعمل بطبيعته على نشر تلك اللغة.وأن الواسطة الخارجية للدين، هي اللغة التي لا يمكن له الاستغناء عنها.ثم يقرر بأن "الرابطة الدينية وحدها لا تكفي لتكوين القومية، كما أن تأثيرها في تسيير السياسة، لا يبقى متغلبا على تأثير اللغة والتاريخ.إن هذا التأثير يشتد أو يتراخى، يتقوى أو يتلاشى، حسب تطور علاقة الدين باللغة، ويبقى أمرا ثانويا في تكوين القوميات بالنسبة إلى تأثير اللغة والتاريخ".

4) أهم العوامل التي تولّد في النفوس الرغبة في الاتحاد، فتؤدي إلى تكوين القومية وتأليف الأمة، إنما هي: وحدة اللغة والتاريخ.ومنه، فالدول التي تحكم شعوبا من غير قومياتها، إنما تقيم نظرية دولتها على فكرة "الإرادة" و"المشيئة" بالتعايش المشترك بين الشعوب، بغض النظر عن عوامل القومية، وهو ما يناسب تلك الدول المهيمنة تماما من الناحية السياسية فحسب.

ثانيا: الهوية اللغوية عند مولود قاسم نايت بلقاسم[19].

تحتل اللغة عند مولود قاسم نايت بلقاسم مكانة هامة، حيث يرى أن للغة صلة وثيقة بالشخصية ولصلتهما معا باستمرار حياة أمة من الأمم.واللغة عنده، "هي تلك الصورة التي تعطى محتواها لونا، وشكلا، وقواما.فهي المحملة بتلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العناصر المكونة للذاتية، للشخصية القومية، فهي ذلك التيار الذي يبعث الروح في جميع أركان الكيان الوطني.وذلك الاسمنت الذي يضمن وحدة البنيان القومي، والذي بدون تلاحمه لا يمكن أن يكون أي كيان لأمة من الأمم"[20]

ومنه، فاللغة ليست شكلا أو أداة فحسب–كما يرى البعض.بل هي محتوى أيضا،كما يرى مولود قاسم، إذ هي قالب تصاغ فيه أفكارنا وأحاسيسنا، نعبر بها عن كنهها وحقيقتنا، تصطبغ بها هذه الأفكار والأحاسيس، بالضبط كما تتأثر هي.أي اللغة، بهذه الأفكار والأحاسيس التي تعبر عنها، والتي تحملها شحنة معنوية قوية تعطيها طابعها المميز لها والخاص بها"[21].

وقد ردّ مولود قاسم نايت بلقاسم على من يعتبرون أن اللغة هي مجرد شكل، بقوله:"وحتى إذا كانت اللغة شكلا فقط، أي قالبا، كما يدّعي هؤلاء، فالمعروف أن القالب يؤثّر في محتواه، إذ يعطيه شكله، وحيث أن القالب يضع خصيصا للشئ الذي يراد صنعه"[22].

ويستشهد مولود قاسم بالإسلام ذاته الذي يعترف بهذه القيمة الجوهرية للغة."فلأن العرب كانت أمة تعتز بلغتها وتفتخر بها، أنزل القرآن بصفة إعجازية لهم، وكان إحدى معجزات الإسلام وإحدى أسلحة الرسول في التغلب على عنجهية الجاهلية[23] .

كما يستشهد بأمم كثيرة أولت اهتماما كبيرا للغة باعتبار أن للغة دورا رئيسا في تكوين أو انبعاث دول أو دويلات.مثل:" تعصب الفلاميين في بلجيكا للغتهم، وحرصهم على خلق فروق بينها وبين الهولندية الأم وذلك لنسيان عهد الاحتلال.والنرويجيون حتى اليوم في صراعهم مع آثار الاحتلالين الدانماركي والسويدي في لغتهم.فمع التآخي الكامل في أغلب الميادين مع هذين البلدين، ورغم القرابة الوثيقة في اللغة إلى حد التفاهم بدون دراسة أحد منهم للغة الآخر، نجد الأولين حريصين جد الحرص على محو الآثار اللغوية التي تذكره بعهد (الاتحاد) مع هذين البلدين، بقصد إثبات أن هناك أمة نرويجية لها لغتها، ومميزاتها، وذاتيتها"[24].

أما الألمان، فقد توقف مولود قاسم عندهم مليًّا مستشهدا بآراء الفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فيخته (**fichte**)."أستاذ الفلسفة بجامعة برلين الذي صارع نابليون ومات شهيد الحرية والدفاع عن أمته، وشخصيتها، ولغتها، هذه اللغة التي لم يكن يتصور أمته بدونها والتي كان يرى فيها العنصر الأساسي لشخصية كل أمة تسمى نفسها أمة، وتستحق أن تسمى كذلك، وتريد لنفسها الكرامة والخلود"[25].فاللغة عند فيخته هي التي تكوّن الإنسان، وليس العكس، وهي التي تؤثر فيه، وليس العكس، فهي صدى روح الأمة، وتؤثر في التصورات وتصبغ عليها معاني وألوانا، وتعكس عليها أشعة أو ظلالا خاصة بها التي تجعل الإنسان من هو، وليست مجرد أداة يعبر بها الإنسان عن نفسه، بل هي أي اللغة الطبيعية الإنسانية التي تبرز منه في شكل أصوات خاصة معينة لا يمكن أن تكون غيرها، إذ بهذه الأصوات الخاصة التي هي صدى الروح، بما تحمله من شحنات عاطفية، وتصورات، ومفاهيم، وذكريات مشتركة، يتفاهم الإنسان مع من يشاركونه نفس التصورات، ونفس المفاهيم، والطبائع، والتقاليد، والعادات، والذكريات، أي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مواطنيه، ولو كانوا ولدوا في قارات أخرى غير قارته"[26].و"الذي يفقد لغته عند فيخته يمزق الخيط الذي يصله بالأجداد، ويفقد معها حلقات ماضية، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية في تطوره ينقطع عن أصله كجلمود صخر انفصل عن الصخرة الأم، وحطه السيل من علٍ.فجرفه وقذف به بعيدا إلى أعماق الذوبان تندمج وتذوب في جنس اللغة الغالبة[27].

وعلى أساسه، فلقد اهتم مولود قاسم كثيرا باللغة العربية وسعى إلى ردّ الاعتبار لها في الجزائر.حيث سمّى من الجزائريين مَن كان يتنكر للغة العربية بالممسوخين.وقد صنفهم في ثلاثة أنواع[28]:

أولا: مَن يحكم على اللغة العربية بالجمود والموت والوقوف لدى حدود القرون الوسطى.وأنها ليست لغة علمية، وهي عاجزة عن التعبير عن دقيق الاصطلاحات الحديثة.وأنها لم تعد صالحة إلا للمسجد كاللاتينية للكنائس وفي أحسن الأحوال للخطب الرنانة الجوفاء.

ثانيا: مَن ينظرون نظرة الشك إلى العربية ومكانتها بين اللغات العلمية الكبرى.فهم بدون أن يهاجموها أو يسْخروا منها علانية لا يحترمونها أكثر من الأولين، ويكتفون بسوء معاملتها ووضعها جانبا بنوع من نظرة الشفقة على ذويها، والاستعلاء عنهم، وإشعارهم أحيانا بأنهم في الحقيقة مساكين يرثى لحالهم.وقد ينجحون فعلا في إقناع بعضهم بنقص فيهم.

ثالثا: مَن رسبت في أعماقهم بذور المستعمر وتأثروا بها، ويبرز ذلك في سلوكهم بدون شعور ولا نية سيئة منهم.وهؤلاء نجدهم من بين أحسن عناصرنا الوطنية.فهم يستعملون منطق المستعمر ومصطلحاته رغم معاكستها لجميع أركان كياننا، وتقاليدنا، وذاتيتنا، وحتى بعد أن ألغى عهد الاستقلال بصفة رسمية أو منطقية صيغة هذه الاصطلاحات أو الاستعمالات تجدهم مستمرين في استعمالها وغير مبالين بقيمة هذا التغير ولا مدركين لمغزاه.

كما كان يتذمر كثيرا من استعمال العامية واللغة الأجنبية–الفرنسية في الدوائر الحكومية وفي وسائل الإعلام.فعمد إلى وضع برنامج لتعميم استعمال اللغة العربية في هاتين المؤسستين، وذلك بتنظيم دروس للغة العربية لمن لا يعرفها من الوزراء والموظفين.كما وضع برنامجا للتلفزة والإذاعة تمثل فيما يلي:

1– تغليب الفصحى على العامية في نشرات الأخبار وغيرها من حصصها الكلامية، وتغليب هذه الحصص الكلامية على الغنائية.

2– إذاعة مسرحيات بالفصحى.

3– قراءة كتب ومحاضرات كل يوم بضع صفحات وفي حلقات متسلسلة حتى آخر الكتاب، كما تفعل كثير من الإذاعات الأوروبية.

4– تنظيم دروس بالعربية بمساعدة التلفزة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إضافة إلى عشرات المعاهد للتعليم الأصلي التي أنشأها، وقد كانت فلسفة التعريب عنده قائمة على شعار: "**تعريب الأمخاخ قبل تعريب الألسنة**".وقد كان يرى أن مسؤولية التعريب هي مسوؤلية تلقى قبل كل شئ على عاتق المثقفين بالعربية."إن رسالة التعريب هذه ليست رسالة الحكومة وحدها، فلديها من المشاكل الأخرى الكثير، وأن المسؤولية الكبرى تلقى قبل كل شئ على عاتق المثقفين بالعربية وعلى المؤسسات الثقافية والشعب كله، فالحكومة هي المحرك والمنفذ ولكنها لا تستطيع وحدها وبنوع من مصباح علاء الدين أو خاتم سليمان جعل جميع بلابل الجزائر تنشد أبا الطيب وأبا العلا"[30].

وقد ردّ على كل من كان يشكك في قدرة اللغة العربية على التعبير عن العلوم الحديثة، وبالتالي مسايرة التطورات.بأن اللغة العربية هي لغة العلوم، كانت لغة العلوم في القرون الوسطى، كانت لغة العلوم في عصر النهضة، كانت اللغة التي يتكلم بها أحيانا في القصور الأوروبية، كانت لغة القصر في صقلية في بليرمة مثلا[31].فهذه اللغة التي عبرت بالأمس عن العلوم –كما يتساءل مولود قاسم، وكانت لغة العلوم في أوروبا، حيث لا تزال إلى الآن أسماء كثيرة من العلوم كالجبر الذي هو اسم عربي محض، أخذ من الحضارة الإسلامية التي أمدت العلم بهذا الاسم، من الجبر والمقابلة.والتي أبدعت هذه الأشياء، هل هي عاجزة عن التعبير عن العلوم اليوم؟[32]

والجواب كما يقول مولود قاسم، "ليست اللغة هي المتأخرة وإنما المتكلمون بها.فاللغة مرآة المتكلم بها، والذنب ليس ذنب اللغة.ثم أن الألفاظ العلمية ما هي إلا اصطلاحات، فإذا كانت أوروبا قد قضت قرونا في العمل على التحرر من اللاتينية وتكوين لغات حديثة متفرعة عنها.فنحن لسنا في حاجة إلى هذا الجهد، فعربية ابن رشد والمويلحي والإدريسي وابن الهيثم والخوارزمي والرازي والبيروني وأبي حمزة والأخضرى الجزائريين وغيرهم، لا تزال صالحة للتعبير عن نفس العلوم مع إضافة الاصطلاحات المتجددة تبعا لحدوثها وتطور العلوم والآلات.فالعربية ليست اللاتينية فبفضل غناها وقدرتها على الاشتقاق وسلاستها وتقاليدها العلمية ومرونتها تعتبر من أقدم اللغات وأحدثها وأكثرها قابلية للتطور في نفس الوقت"[33].

لم يكن مولود قاسم يهدف إلى إحياء اللغة العربية في الجزائر فحسب، بل كان يطمح إلى جعلها لغة الحياة القومية في السلوك العملي اليومي في البلاد العربية جمعاء.يقول مولود قاسم:"...فقد ظلمت هذه اللغة في بلدها كثيرا وطويلا، فلِم لا نرجع لها مكانتها الأولى، ونخط الطريق لجميع البلاد العربية الأخرى المحتاجة إلى هذا هي أيضا؟ لِم لا يرجع الفضل إلى الجزائر في هذا؟ فقد فتحت الجزائر فيما مضى الطريق على الأقل في المغرب والأندلس، فأول نحو عربي شامل وضع في المغرب والأندلس هو ألفية ابن معطى الزواوي الجزائري التي أشاد بها ابن مالك الأندلسي في بدء ألفيته، وهكذا كان ابن معطى الجزائري نوعا من أبي الأسود الدؤلي للمغرب والأندلس.لنبدأ نحن في حدود الإمكان باستعمال الفصحى في المغرب، وسيتبع المشرق"[34].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وليس معنى هذا أنه كان من دعاة القومية العربية، بل على العكس.فعلى الرغم من دفاعه المستميت عن اللغة العربية، فقد كان لا يؤمن بأمة عربية.يقول مولود قاسم:"لا أؤمن بأمة عربية، وإنما بأمة إسلامية، لقد أصبح التركيز منذ لورانس على بعض الشعارات –أمة **عربية**– و**عروبة**، بمناسبة و بدون مناسبة، شنشنة نسمعها اليوم، وموجهة.وكان ينبغي ألا نستغربها، لأنها تأتي من بعض الأوساط التي تريد أن تبعدنا عن الشئ الذي يجمعنا.من أوساط لا داعي لذكر اسمها، من أوساط يسارية ودينية في المشرق العربي، وفي المشرق العربي فقط.هذه العناصر تدعونا إلى هذا التمجيد لكلمة عرب، وعروبة، وأمة عربية، ووطن عربي، لعزلنا عن الشئ الذي يجمعنا مع الآخرين الذين هم ليسوا عربا في آسيا وفي إفريقيا التي تسمى إفريقيا السوداء"[35].

ثالثا: الهوية اللغوية في عصر العولمة.

لقد أصبح موضوع الهوية في الوقت الراهن أحد المواضيع الأساسية التي تتصدر النقاشات، حيث تزايد الاهتمام بها مع تزايد التحديات التي تفرضها العولمة على الشعوب.فلقد جاءت العولمة بتحديات عديدة، فظهر معها الجدل الفكري حول التحدي الذي تفرضه على الهوية القومية وخصوصيتها.خاصة أن العولمة تعبّر عن تناقضات الفكر الرأسمالي المعاصر في فترة ما بعد الحداثة، وتمثل نمطا للهيمنة الغربية ونشر ثقافة اقتصاد السوق وثقافة التشيؤ بتحويل كل القيم إلى سلع تباع وتشترى.

لقد حملت رياح العولمة في ثناياها إسقاط الحواجز اللغوية تمهيدا لفرض سيادة لغة الدولة التي تفردت بالهيمنة على العالم، "فالعولمة تصميم قسري لنموذج معادي للتعددية والتنوع الثقافي واللغوي، يلغي التمايز والشخصية الثقافية، ويروّج عن طريق وسائل الإعلام لقيادة قوانين السوق وقيم المجتمع الليبرالي الرأسمالي ولفرض ديكتاتورية الكلام الوحيد والصورة الوحيدة والنمط الواحد من الحياة، ويحوّل الإنسان إلى مجرد مستهلك مستسلم ومشاهد متلق، يتم تصنيفه وترويضه جماعيا وعلى مستوى العدد"[36].

إن هذه التحديات الثقافية، لاسيما اللغوية منها.لن تعاني منها دول الجنوب فحسب، بل أيضا ثقافات ولغات دول الشمال، جاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (**ألكسو**)، أنه ليست دول الجنوب وحدها التي ثقافتها مهددة.فالثقافات الأخرى جميعا تعاني من الوضع نفسه، وهذا يعني أن ثمة أزمة ثقافية عالمية تريد القضاء على التنوع الثقافي في سبيل نمطية ثقافية واحدة[37].

وهذا ما تشير إليه بعض الدراسات الأوروبية، حيث تعاني الثقافات الأوروبية نفسها من الحصار أمام الوافد الدخيل الأمريكي.فلقد أورد د/إلياس فرح ما جاء في بعض هذه الدراسات، فعن إدوار غاليتو الذي يرى أن العولمة ستقلب الأمور، إذ تحل الأسواق محل الشعوب، والمستهلكين محل المواطنين، والمشروعات الصناعية محل الأمم، والتجمعات محل المدن، والمزاحمة التجارية محل العلاقة الإنسانية. أما عن إدكار بيزاني، فقد أورد د/إلياس فرح دعوته إلى رفض

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العولمة– لنقف معا ضد العولمة، لأنها تتجاهل العلاقة بين الدولة والأمة والأرض والوطن واللغة والثقافة...إذا قيل للفرنسيين إن بناء أوروبا ينبغي أن يؤول إلى زوال الأمة الفرنسية، فإنهم لن يقبلوا لأنهم يتطلعون إلى مستقبل يتحقق فيه التوازن والتكامل، بين ما هو سياسي وما هو ثقافي، ومحصن ضد العولمة التي تخلق وحدة زائفة تتجاهل التعددية والتنوع[38].

ولعل هذا ما جعل أوروبا، وعلى الأخص فرنسا تعبّر عن احتجاجها بمناسبة مفاوضات (ألغات) ودفاعها عما بات يعرف باسم (الاستثناء الثقافي).على الرغم من أن ثقافات أوروبا تنتمي إلى حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية سواء في أصولها الأوروبية أو امتداداتها الأمريكية.

كما جعل فرنسا تنشئ وزارة الفرانكفونية لحماية اللغة الفرنسية، إضافة إلى تأسيس منظمة الفرانكفونية.حيث يشير أمينها العام د/بطرس غالي بطرس، أن هذه الفرانكفونية ليس لحماية اللغة الفرنسية فحسب، بل للدفاع عن التعددية الثقافية واللغوية أيضا.فاللغات في رأيه بمثابة التراث الإنساني، وثراء المجتمع الدولي قائم على هذه التعددية.فلو سيطرت لغة واحدة على المجتمع الدولي، فإن ذلك سيؤدي إلى إضعاف اللغات الأخرى.وهذا خطأ كبير وخطير، وكما أن هناك منظمات دولية أنشئت للدفاع عن البيئة وعن بعض الحيوانات وبعض النباتات.يجب أيضا الدفاع عن الحضارات وعن الثقافات، عن التعددية الحضارية وعن التعددية الثقافية واللغوية[39].

إن بُعد العولمة يفرض على اللغات الضعيفة الانقراض، خاصة أنه من المتوقع أن يتقلص في ظلها عدد لا بأس به من اللغات.حيث يشير د/محمد نبيل نوفل، أن عدة آلاف من اللغات يتوقع أن يختفي.**90%** منها خلال القرن المقبل أي القرن الحادي والعشرين الميلادي، بحيث لا يبقى سوى ما يتراوح ما بين **250-600** لغة[40]. الأمر الذي يجعل مسألة التعدد اللغوي تطرح بإلحاح في ظل العولمة التي تسعى إلى هيمنة لغة واحدة، لغة الطرف الأقوى.

فلقد بات واضحا أن العالم يواجه على جبهة اللغة موقفا مصيريا– كما يشير إلى ذلك مدير منظمة اليونسكو الأسبق–إما أن يتمسك بتعدد لغاته، وما ينطوي عليه ذلك من صعوبة التواصل وإعاقة تبادل المعلومات والمعارف، و–إما أن تتوحد لغات العالم في لغة قياسية واحدة، الإنجليزية في أغلب الظن.وساعتها تكون قد حلت بالبشرية الطامة الكبرى، على حد تعبير مدير منظمة اليونسكو في لقاء "دافوس"[41].لاسيما وأن ثقافة العولمة تتوسع في ظل تصاعد الثقافة المرئية التي تعتمد بصورة أساسية على وسائل الإعلام والاتصال المتطورة، وتكنولوجيا المعلومات التي تخترق جميع القارات بلغة الطرف المهيمن.وهذا في ظل تراجع الثقافات المحلية، لاسيما المكتوبة منها، وفشل بعض الأنظمة الثقافية التقليدية لشعوب العالم الثالث.

وعندما نتأمل الخريطة الثقافية الراهنة للعالم، نقف على حقيقتين وهما:

1) عولمة الثقافة الأمريكية على العالم بما فيه أوروبا.
2) سيطرة اللغة الإنجليزية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد أدى ذلك إلى تنافس حاد بين الثقافتين الأنجلوساكسونية والفرنسية، وبين اللغتين الإنجليزية والفرنسية على وجه الخصوص.

والثقافة العربية الإسلامية بمقوماتها الأساسية الدين –(الإسلام) واللغة –(العربية)، تواجه اليوم تحديات خطيرة.لاسيما وأن العولمة تسعى إلى إيجاد لغة عالمية، وديانة عالمية.فاللغة والدين مقصدان للعولمة، يؤكد على ذلك الكثير من المفكرين الغربيين، منهم صموئيل فيليب هنتنغتون[42] .حيث يقول:"اللغة والدين هما العنصران المركزيان لأية ثقافة أو حضارة.وإذا كانت هناك حضارة آخذة في الانبثاق، فإنه ينبغي أن توجد اتجاهات نحو انبثاق لغة عالمية وديانة عالمية"[43].

أما الديانة، فيقصد بها العقيدة الليبرالية.وأما اللغة، فيقصد بها اللغة الإنجليزية.حيث يقول:"إن لغة العالم هي اللغة الإنجليزية"[44].

خاتمة:

لقد حاول ساطع الحصري أن ينظر إلى القومية العربية بمنظار عالمي، محاولا أن يرفع من مكانتها إلى مستوى النظريات القومية العالمية.وإن كانت قد جاءت ذات صبغة نظرية أكثر منها واقعية، وهذا ما لم ينكره بنفسه.

لقد بنى ساطع الحصري فكرة القومية العربية من منطلق علماني، حيث كرّر ما جاء في النظريات الغربية حول القومية باعتبار اللغة والتاريخ المشترك المكونين الرئيسين لتكوين الأمم، وبتهميش العنصر الديني.

إن القوميّين العرب وعلى رأسهم الرائد الأول للفكر القومي العربي ساطع الحصري، لم يعوا ظروف نشأة القومية في الغرب ومحليتها وظنوا أنها فكرة عامة وشاملة صالحة لكل الشعوب في كل العصور وفي ظل كل الحضارات.فكان من الطبيعي أن تنزع أفكار ساطع الحصري نحو المثالية والتجريد، وتبتعد عن الواقعية، فالواقع العربي يختلف عن الواقع الأوروبي.

والملفت للانتباه في نظرية الحصري القومية هو الحد الفاصل الذي وضعه بين العروبة والإسلام، فاستعاض بعقيدة العروبة عن عقيدة الإسلام.حيث نظر إلى الإسلام على أنه حركة تجديدية عربية، كان لها دورها في صنع تاريخ الأمة العربية في الماضي.أما في العصر الحديث، فقد أصبح عنصرا ثانويا.وما في ذلك من قطيعة بين المسلمين والعرب، وبين العرب أنفسهم –بين مسلميهم ومسيحييهم–، وبين العرب المسيحيين أنفسهم وبين انتمائهم الحضاري الإسلامي، باعتبار أن تراث العرب المسحيين هو التراث الحضاري الإسلامي.فهم أقرب منه إلى التراث الحضاري الغربي، الأوروبي على وجه التحديد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما مولود قاسم نايت بلقاسم، فقد كان من أنصار الفصحى.حيث كرّس كلّ جهوده للدفاع عنها ضد اللغة الأجنبية–الفرنسية، لاسيما مع وجود من كان يدعو إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية.وأيضا ضد العامية التي غزت وسائل الإعلام المختلفة، والتعليم وغيره.

لقد كانت لمولود قاسم نايت بلقاسم آراء متميزة عن الهوية اللغوية، ومنه عن القومية العربية والعروبة.حيث تقابلت مع آراء القوميّين العرب، ومنهم ساطع الحصري.على الرغم من الانطلاق من المرجعية الغربية عند الطرفين، المرجعية الألمانية على وجه الخصوص.

وعلى الرغم من استماتته في الدفاع عن اللغة العربية، لم يكن مولود قاسم متعصبا للعنصر العربي ولا للقومية العربية شأن القوميّين العرب.كما أنه لم يقلّد الفلاسفة الألمان في طروحاتهم حول القومية، على الرغم من دراسته لنظرياتهم والاستشهاد بآرائهم.لأنه فَهِمَ العروبة في ظل الإسلام وتحت مظلته، وفي ظل الوحدة والجامعة الإسلامية.فمفهوم العروبة عنده ليست انتماء عرقيا أو تعصبا عنصريا، بل هي انتماء ثقافي وحضاري.فقد كان من أنصار اللغة العربية وكان فكره ولسانه عروبيا، على الرغم من كونه أمازيغيا.

مما لاشك فيه، أن الهوية اللغوية في إطار العروبة هي حصن متين في مواجهة تحديات العولمة.لكن العروبة بمفهومها الثقافي الحضاري التي هي جزء لا يتجزأ من الثقافة الحضارية الإسلامية، لا بمفهومها العلماني الذي يجردها من الإطار الحضاري الإسلامي.حيث يكرس مفهوم الهوية اللغوية في إطار العروبة –كما فهمها ساطع الحصري، التبعية إلى الآخر لا التحرر منه.

الهوامش:

[1] – أبو خلدون ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية.دار المعارف.القاهرة.مصر.سنة 1964م.ج(1).ص 356 و357.

[2] – مجيد خدوري، الاتجاهات السياسية في العالم العربي.الدار المتحدة.بيروت.لبنان.سنة 1972م.ص 36 و37.

[3] – وليام الخازن، الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام 1939م.دار العلم للملايين.بيروت. لبنان.سنة 1979م.ص 78.

[4] – طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية.دار الشروق.القاهرة.مصر.سنة 2004م.ص 804.

[5] – هو ساطع بن محمد هلال الحصري (أبو خلدون)، ولد في صنعاء سنة 1880م.درس في المدارس التركية، حيث تقلد بعد تخرجه منها عدة وظائف تعليمية وإدارية.كانت نزعته طورانية تركية، حيث عمل مع جمعية الاتحاد والترقي، ونشر عدة دراسات في الدعوة إلى الطورانية.ثم أصبح رائدا من رواد القومية العربية، وكانت في لغته العربية رطانة.رحل إلى دمشق عام 1919م، فتولى منصب وزير التعليم.ثم عيّن في العراق مسؤولا عن التعليم، وقد كان علمانيا فلم يبد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اهتماما بدروس الدين في المناهج المدرسية.وظل يدعو إلى فكرة القومية العربية إلى أن قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941م.حيث نفي إلى حلب من طرف الإنجليز، فتسلل منها إلى بيروت.ثم عاد مرة أخرى إلى دمشق عام 1944م، فعيّن مستشارا لصياغة النظام التربوي والتعليمي في البلاد، فاهتم بالفكر القومي وبتطوير مناهج التعليم.عيّن مديرا لمعهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة عام 1953م.وفي سنة 1965م، عاد إلى العراق وتوفي في بغداد سنة 1968م. جلّ مؤلفاته تناولت الدعوة إلى فكرة القومية العربية (الموسوعة الحرة www.wikipédia.org).

[6]- أنور الجندي، أخطاء المنهج الغربي.دار الكتاب اللبناني.بيروت.لبنان.سنة 1974م.ص 206.

[7]- نقلا عن: ساطع الحصري، الأعمال القومية لساطع الحصري.سلسلة التراث القومي.مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.لبنان.سنة 1985م.القسم (2).ص 1810.

[8]- المرجع نفسه.

[9]- المرجع نفسه.

[10]- إلياس مرقص، نقد الفكر القومي.دار الطليعة.بيروت.لبنان.سنة 1966م.ص 560.

[11]- محمد الخولي، تعقيب على بحث: محمد عبد الشفيع عيسى، نظرية ساطع الحصري في القومية العربية: جدلية الإثبات والنفي.ورقة مقدمة إلى الندوة الفكرة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ومعهد البحوث والدراسات العربية بعنوان: ساطع الحصري ثلاثون عاما على الرحيل.مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت.لبنان.سنة 1999م.ص 163.

[12]- للمزيد من التفاصيل، راجع: ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، مرجع سابق.

[13]- راجع: ساطع الحصري، الأعمال القومية لساطع الحصري، القسم (1)، ص 9 وما بعدها.

[14]- المرجع نفسه، القسم (2)، ص 15.

[15]- للمزيد من التفاصيل، راجع: ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، ج(1)، من ص 38 إلى ص 56.

[16]- تاتيانا تيخونوفا، ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي.ترجمة وتقديم: توفيق سلوم.دار التقدم.مسكو.سنة 1987م.ص 48.

[17]- ساطع الحصري، المرجع السابق، القسم (3)، ص 2903.

[18]- ساطع الحصري، العروبة أولا.بيروت.لبنان.ط(2).سنة 1955م.ص 106.

[19]- مولود قاسم نايت بلقاسم ولد في 6 جانفي 1927م بولاية بجاية، تعلم في مدرسة التربية والتعليم التابعة لجمعية العلماء المسلمين بقرية قلعة بني عباس، ثم بجامعة الزيتونة في تونس سنة 1954م.وبجامعة القاهرة سنة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1950م، حيث تحصل منها على شهادة الليسانس في الفلسفة.عاش في دول أوروبية عديدة، حيث أجاد الكثير من لغاتها.تقلد بعد الاستقلال مهاما عديدة، أهمها: وزير للتعليم الأصلي والشؤون الدينية ومستشار لرئيس الجمهورية.حيث عمل من خلال منصبه على إنشاء الكثير من المعاهد للتعليم الأصلي.ترك مؤلفات في الفكر والثقافة والتاريخ، ونظّم ملتقيات دولية للفكر الإسلامي.توفي في 27 أوت 1992م.

[20]– من مقال نشر في جريدة "المجاهد" الأسبوعية بتاريخ 1962/11/22م.ضمن كتاب: مولود قاسم نايت بلقاسم، إنيّة وأصالة.دار الأمة.الجزائر.ط(2).سنة 2007م.ص .28.

[21]–كلمة افتتاح الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي في وهران يوم 27 جمادى الأولى 1391هـ/20 يوليو 1971م.ضمن المرجع نفسه، ص .184.

[22] – مولود قاسم نايت بلقاسم، المرجع نفسه، ص .184.

[24] – المرجع نفسه، ص .28.

[25] – المرجع نفسه، ص .29.

[26] – من مقال نشر بمجلة "الأصالة" عدد خاص عن التعريب رقم 18/17 بتاريخ: محرم 1394هـ/فيفري 1974م.ضمن المرجع السابق، ص .54.

[27]– المرجع نفسه، ص .57.

[28]– المرجع نفسه، ص 58.

[29] – من مقال نشر في العدد 136 من المجاهد الأسبوعي بتاريخ: 15 نوفمبر 1962م.ضمن المرجع السابق، ص 20 إلى ص .23.

[30]– من مقال نشر في المجاهد الأسبوعي بتاريخ: 29/ 1962/11م.ضمن المرجع السابق، ص .35.

[31] – من الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة 1392هـ/1972م.ضمن المرجع السابق، ص .251.

[32] – من نص محاضرة ارتجلت في الأكاديمية العسكرية بشرشال يوم 22 صفر 1393هـ/27 مارس 1973م.ضمن المرجع نفسه، ص .526.

[33] – من مقال نشر في المجاهد الأسبوعي بتاريخ: 29/ 1962/11م.ضمن المرجع السابق، ص .49.

[34]– المرجع نفسه، ص .42.

[35]– من الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة 1392هـ/1972م.ضمن المرجع السابق، ص 303 و .304.

[36]–المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة الشاملة للثقافة العربية.دار الثقافة.تونس.ط(2).سنة 1997م.ص 130.

[37]– المرجع نفسه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[38]– إلياس فرح، مقال: الهوية والخصوصية والعولمة.مجلة "آفاق عربية".عدد مزدوج (7) و(8).سنة 1998م.ص 28.

[39]– بطرس غالي بطرس، هدف الفرانكفونية الدفاع عن التعددية الثقافية.مجلة "السياسة الدولية".لقاء العدد.إعداد: سوسن حسين.عدد(133).سنة 1998م.ص .154

[40]– محمد نبيل نوفل، مقال: رأي المستقبل: المجتمع والتعليم في القرن الحادي والعشرين الميلادي.مجلة"المجلة العربية للتربية".المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.تونس.السنة الأولى.عدد(1).سنة 1997م.ص .204

[41]– راجع: تقرير التنمية الإنسانية العربية عام 2002 م.برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.عمان.الأردن.ص .74

[42]– من أبرز السياسيين والمفكرين الإستراتيجيين الأمريكيين المعاصرين.وصاحب نظرية "صدام الحضارات".مدير معهد جون أولن (John olin) للدراسات الإستراتيجية منذ سنة 1989م، ورئيس أكاديمية هارفرد للدراسات الدولية والإقليمية منذ سنة 1996م.وهي المناصب التي يشغلها حاليا، إضافة إلى تدريسه في جامعة هارفرد (Albert weather head II) كتب في مجالات عديدة، منها: السياسة الحربية، والإستراتيجية وسياسة الدول النامية (ارجع إلى: www.Gov.Harvard.edu.)

[43]– صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي.ترجمة: د/مالك عبيد أبو شهيوة ود/ محمود خلف.الدار الجماهيرية.ليبيا.ط(1).سنة 1429هـ/ 1991م.ص .133

44- المرجع نفسه،ص 133[4]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com